منطقة سكيكدة من خلال كتابات المؤرخيين والجغرافيين في العهد الوسيط، من بداية القرن الثالث إلى نهاية القرن العاشر للهجرة.

Title in English; times new roman; size 12; interline 1; small letters

محمد تيش تيش عبد القادر *

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة.

aektuchtuch@yahoo.fr

د. قويسم محمد

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة.

تاريخ الاستلام: 2024/08/10 تاريخ القبول 2024/11/23 تاريخ النشر 2024/12/17

ملخص: منطقة سكيكدة المتكونة من مدينة سكيكدة، وميناء ستورة، ومدينة القل، ذكرها الرحالة والجغرافيون خلال العصر الوسيط، من حيث التسمية والموقع والثروات الزراعية المختلفة والمصنوعات والمبادلات التجارية، مما يوضح أن هذه المنطقة عرفت حضورا تاريخيا متواصلا على امتداد هذه الفترة من التاريخ

الكلمات المفتاحية: سكيكدة، المغرب الأوسط، القل، ستورة، العصر الوسيط

Abstract:

Skikda district consist of Skikda Town, Stora, kol (Collo) mentioned by travelers and Geographers during medieval epoch, in name, situation, agricultural fortune, industrial products and trade deal, Which shows that this region has had a continuous historical presence throughout this period of history.

Keywords: Skikda, middle Maghreb, Collo, Stora, medieval epoch .

* المؤلف المراسل

مقدمة:

سكيكدة ولاية ساحلية تقع في الشمال الشرقي للجزائر، ما بين ولايتي عنابة شرقا وجيجل غربا، أما من الجنوب فقسنطينة وميلة، ورد ذكرها من طرف الرحالة والجغرافيين في مؤلفاتهم خلال العصر الوسيط، بداية من اليعقوبي في القرن الثالث الهجري (3 هـ) الموافق للقرن العاشر الميلادي (10 م)، إلى كربخال مارمول (Carbajal Marmol) في القرن العاشر الهجري (10 هـ) الموافق للقرن السادس عشر الميلادي (16 م).

وفي هذه الورقة البحثية سنحاول من خلال كتابات هؤلاء المؤرخين أن نستجلي وصف المنطقة، التي غالبا ما تأتي في ثلاثة أسماء هي سكيكدة، ستورة والقل، ثم كيف تطورت تسمياتها، مواقعها، وما هي اهم مقوماتها الاقتصادية، وهذا من أجل توضيح أهمية هذه المنطقة في الفترة الوسيطة ضمن المدن الساحلية، بمنهجية تتمثل أولا في ذكر ما قاله الرحالة والجغرافيون ثم تحليل ذلك من مصادر أخرى ومراجع متخصصة إن وجدت أو حتى بالاعتماد على الاجتهادات الشخصية.

لكن وقبل الخوض في تلك الاقوال من الجدير اولا استعراض ولو بشكل موجز التاريخ القديم الذي كان سببا في وجود مدن المنطقة وتوزيعها الجغرافي المستمر تقريبا بنفس الشكل إلى اليوم، حيث أن كبرى المراكز العمرانية على غرار القل، سكيكدة، بني والبان، بكوش لخضر و غيرها من المراكز كانت كلها قد تأسست في تلك المرحلة القديمة.

I. الفترة القديمة:

أتبثت الاكتشافات الأثرية أن تاريخ المنطقة موغل في القدم، فهو يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث دلت هذه الاكتشافات على تواجد بشري بالمجال الغربي للولاية منذ العصر الحجري القديم ثم اتسع نطاق هذا التواجد في حدود فجر التاريخ ليشمل معظم أجزاء الإقليم الولائي، وهذا تزامنا مع مجيء الفنيقيين وانشائهم العديد من الموانئ عبر سواحل حوض المتوسط، و يعد خليج نوميديا الممتد من رأس بوغارون إلى غاية رأس الحديد واحدا من أهم المناطق التي استقطبت الاستيطان البشري المتعاقب، وقد كان ذلك بفضل الموقع الاستراتيجي لهذا الخليج، الذي مثل في الفترة القديمة همزة وصل بين مختلف نقاط حوض المتوسط من خلال مينائي روسيكاد Rusicade و شولو Chullu.

كان أول من أشار للمنطقة هو سكيلاكس (skylax) في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث أشار الى بلدة باسم طابسوس[1] Thapsus، ثم من بعده بطليميوس (Ptolemius) في القرن الأول للميلاد الذي أعاد نفس التسمية في بعض النسخ أما في النسخة المترجمة بين أيدينا إلى اللغة العربية فنجد فيها ذكر لعدد من المدن بعد مصب الوادي الكبير من بينها كولوبس مانيوس (القل) و روسيكاد (سكيكدة)[2] ، أما المؤرخون الرومان من أمثال تيتوس ليفوس Titus Livius و صالوستيوس Sallustius و بومبنيوس ملا Pompinius Mela و بلينيوس

Plinius فيشيرون كلهم إلى وجود مدينتين هما روسيكاد (سكيكدة) و شولو أو شولس و حتى كولي (Culli) و هي تسميات مختلفة لمدينة القل قديما، غير أن إشاراتهم لم تكن تزيد في جميع الحالات عن بعض المعلومات البسيطة، إلا ما أشار اليه صولان Solin من أن شولو كانت تشتهر بصناعة النسيج الأحمر الذي يضاهي جودة ذلك الذي ينسج في مدينة صور وكذلك ذكره للرخام و الدببة النوميدية (Solin, 1847, XXVII)[3]، و الذي يمكن استنتاجه عامة من خلال قراءة تلك المصادر، أن المدينتين نشأتا مبكرا في شكل مرفأين تجاريين خلال مراحل التوسع الفنيقي مع مطلع الألفية الأولى قبل الميلاد، ثم تحولتا لاحقا، ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد إلى بلدتين لهما مكانتهما الاقتصادية و حتى السياسية، وكانتا تتبعان – في إطار الأراضي الميتاغونية – للنفوذ القرطاجي الممتد على سواحل المتوسط[4] .

وبعد احتلالهما من طرف الرومان سنة 45 ق م[5]، فقد صارتا من ضمن مدن الكونفدرالية السيرتوية أو اتحاد المستعمرات الأربع[6]، حيث أن هذا الاتحاد استمر لثلاثة قرون، عرفت فيها المدينتان ازدهارا عمرانيا كبيرا، كما نشأت بضواحيهما عدة مراكز عمرانية جديدة مثلما يشير الى ذلك لوح بوتنغر و خارطة الانطونيين، ليتفكك الاتحاد بعدها و تستقل كل مدينة بذاتها، ثم أعقب ذلك كله غزو وندالي منتصف القرن الخامس للميلاد منهيا بذلك وجودهما على ساحة احداث التاريخ، اذ لم يعد يرد ذكر المدينتين في أي من المصادر القديمة رغم زخم الاحداث التي

كانت جارية حينها بشمال افريقيا، وهذا إلى غاية القرن العاشر ميلادي (الثالث للهجرة).

II. الفترة الوسيطة:

في غضون الفترة الوسيطة وبعد زهاء ثلاثة قرون من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، يلوح مجددا ذكر المدينتين في عديد المصادر، وذلك بتسميات مختلفة، إلا أنها تسميات قريبة من الأصل، أو على أصح تعبير محورة عنه، فقد حملت شولو اسم القل، أما روسيكاد فأصبحت سكيكدة، كما اقترن هذا الذكر غالبا بكلمة المرسى أو الميناء، ما يعني انهما عادتا الى التاريخ من باب النشاط البحري بعدما نشطت الملاحة البحرية في حوض المتوسط أو بحر الروم مثلما اطلق عليه المسلمون، و سنستعرض فيما يلي بعضا من تلك النصوص الواردة في مصادر المؤرخين والجغرافيين خلال المرحلة الوسيطة مرتبة ترتيبا كرونولوجيا.

1- القرن الثالث الهجري/العاشر الميلادي :

1.1-اليعقوبي(ت284هـ/927م) :

عند حديثه عن الزاب ومدنه، ذكر اليعقوبي ميلة التي كانت مقر أبو المهاجر دينار أيام فتوحاته قائلا: "وسواحل البحر تقرب من هذه المدينة ولها مرسى يقال له: جيجل، ومرسى يقال له قلعة خطاب، ومرسى يقال له أسكيدة ، ومرسى يقال له ملر" وهذا البلد كله مثل ما

ذكراليعقوبي آهل إلى حد ما و يعرف نشاطا زراعيا تمثل في كثرة الأشجار والثمار "وهم في جبال وعيون"[7] وتحيلنا هذه اللفظة الأخيرة إلى أن المنطقة عموما متوزعة بين اكناف الجبال وأنه لم تكن هناك حواضر أو مدن قارة يجتمع عليها الناس وكلمة أو لفظة **أسكيدة** واضح جدا أنها تحريف أو تعريب للتسمية القديمة روسيكاد، كونها غير مفهومة و لا معروفة في اللهجات المحلية[8] ، كما انها وردت مقرونة بالمرسى، ما يعني ان الجزء الوحيد المتبقي من تلك المدينة الشهيرة قديما هو الميناء الذي بقي قيد العمل في مجال الملاحة البحرية.

2- القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي:

1.1- ابن رستة (ت300هـ/912م):

جاء في كتابه الأعلاق النفيسة عند حديثه عن مدينة ميلة أيضا: "أن لها مرسى يقال له جيجل ومرسى يقال له قلعة خطاب ومرسى يقال له أسكيدة ومرسى يقال له مادرة ومرسى يقال له مرسى دنهاجة"[9] والظاهر ان بن رستة لم يزد شيئا عن كلام اليعقوبي بل لقد أعاد النص بحرفه، ما عدى مرسى **مادرة** الذي أطلق عليه اليعقوبي اسم ملرة، وقد يكون ذلك خطأ وقع فيه سهوا النساخون، والغريب أن كلاهما لم يأتيا على ذكر مدينة القل ولا مرساها، فهل كان المقصود بمرسى **قلعة خطاب** هو نفسه مرسى القل؟ فنحن لا نعلم مرسى يتوسط جيجل واسقيدة الا مرسى

القل أو مرسى الزيتون وكلاهما يتبعان للمصيف القلي على ساحل بوقارون.

3- القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي:

1.3- البكري(ت487هـ/1094م) :

قال عند ذكر مدينة قسنطينة: "وبينها وبين مرسى سقدة مسيرة يوم"[10] **سقدة** بكسر السين، أي بين مدينة سقدة ومدينة قسنطينة مسيرة يوم وهي حوالي 80 كلم.

وذكر نفس الوصف في كتاب آخر بعنوان: معجم ما أستعجم،ج3، بمعنى معجم أو قاموس ما كان غير مفهوم عند الناس منها **مرسى سقدة،** لكن في لسان العرب ورد لفظ سقده سقدا وسقدة: يضمره، بمعنى هذبه وعدله[11] وضمر الفرس: علفه حتى سمن[12] ، ومازال في اللهجة السكيكدية لفظة (سقده) بالجيم المضخمة عكس النطق العام بالقاف وتعني تعديل وترتيب الشيء، ومع ذلك فإننا لا نرى أي رابط لهذا التأويل اللغوي مع تسمية المرسى التي هي في كل الأحوال تظل مرتبطة بالتسمية الفنيقية القديمة: **روسيكادا.**

4-القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي:

4. 1- الإدريسي (ت 547هـ/1151م):

ونفس الشيء ذكره الإدريسي عند حديثه عن مدينة قسنطينة: "ومنها إلى مرسى القل يومان." وذكر عن القل: "ومن جيجل إلى مدينة القل سبعون ميلا وهي آخر مدن هذا الجزء المرسوم" و يقصد الادريسي بقوله أنها آخر المدن، أي في الجزء فقط الممتد من قسنطينة إلى البحر، بمعنى الشمال القسنطيني بمصطلح اليوم أو إقليم نوميديا الشمالية قديما، ثم أردف عقب ذلك واصفا: "والقل قرية عامرة، وكانت في سالف الدهر مدينة صغيرة عامرة، والآن هي مرسى، وعليه عمارات، والجبال تكنفه من جهة البر، و الطريق منها إلى قسنطينة في أرض تغلبت العرب عليها" ليضيف أنها أيضا أرض قبيلة كتامة التي تمتد حتى مدينة بونة أو تجاوزها بقليل و أن الكتاميين هم أهل بذل و كرم لمن نزل بهم من الاضياف، و يلاحظ في وصف الادريسي أنه نعت القل "بالقرية" مع إحالتنا إلى تاريخها القديم و أنها كانت مدينة عامرة، و هو مؤشر جيد لنضج الكتابة الجغرافية و التاريخية في ذلك الوقت والتي لم تعد تستند فقط على المشاهدة بل أيضا على سعة الاطلاع و المعرفة، عكس ما كان عليه الأمر من قبل مما اسقط من النصوص الجغرافية مدينة هامة بحجم مدينة القل، ثم يواصل نصه بالقول "ومن القل إلى مرسى استورة عشرون ميلا"[13] والميل هو1.6 كلم وبذلك تكون المسافة بين القل ومرسى ستورة أكثر من30 كلم عبر الطريق الجبلي المختصر القريب من الساحل[14] واسم ستوره أو شتورة هو مثلما يتفق بشأنه الكثير، اسم فنيقي، و يرتبط بالإلهة عشتروت، حيث أن الفنيقيين

قديما الحقوا اسم الميناء بإلهتهم الرئيسية ووضعوه تحت رعايتها بغرض التبرك ليصبح اسمه "ميناء عشتار أو عشتروت" و هو ما احتفظت به الذاكرة المحلية.

4. 2- مجهول (ت 587هـ/1191م):

صاحب الاستبصار ذكر مدينة القل على أنها "**مدينة قديمة**" وأن بها الكثير من الأثار الرومانية، "وهي على ضفة البحر وهي مرسى مدينة القسطنطينة وهي كثيرة الفواكه والخيرات، والعنب فيها كثير، وفيها تفاح جليل ولها نظرة وجباية عظيمة وهي برية بحرية"[15]، وقد أورد صاحب الاستبصار في هذا الوصف تفصيلين هامين، الأول أنها مرسى قسنطينة، أي أنها تتبع إقليميا لحاضرة قسنطينة و الثاني انها محل لجباية معتبرة بفضل الازدهار الكبير في المجال الزراعي، خاصة أشجار التفاح و الكروم بمختلف أنواعها و ان النشاط الاقتصادي بها يمتد برا و بحرا.

5-القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

5. 1-ياقوت الحموي(ت623هـ/1225م):

ذكرها في معجمه في حرف السين كما يلي: "سكدة: بفتح أوله، وسكون ثانيه: بلد على ساحل بحر إفريقية بقرب من قسطنطينة الهواء"،

ودائما دون شرح لمعنى هذه الكلمة خاصة وان الرحالة والجغرافيين المشارقة لا يعرفون اللهجات المحلية ولم يسألوا عن معناها[16].

5. 2- ابن سعيد المغربي(ت685هـ/1268م):

وصفها بقوله: "قاعدة الغرب الأوسط بجاية... وفي شرقيها القل، وهي فرضة مشهورة في ساحل قسنطينة الهوى، وبينهما أربعون ميلا"[17]، وهنا يوضح ابن سعيد المغربي مثل الإدريسي وأبو الفدا[18] والقلقشندي[19] والحميري[20] أمرا مهما وهو: أن مدينة بجاية جزء من بلاد المغرب الأوسط وليس افريقية بل وهي قاعدة الغرب الأوسط وهذا الأمر ينطبق على ما يجاورها من المدن أيضا مثل القل وسكيكدة وحتى بونة ومرسى الخرز التي هي آخر مملكة بجاية[21].

وعند ذكر مدينة قسنطينة ذكر ابن سعيد المغربي القل على أنه ميناء من الموانئ التي ترتبط بها مدينة قسنطينة بالبحر الشامي أو البحر الأبيض المتوسط [22].

6- القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

6. 1-صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739هـ /1339م):

ذكر مدينة سكيكدة بقوله: "سكدة بالفتح ثم السكون: بلد على ساحل بحر افريقية، قرب قسطنطينية الهواء" أي الفرق بالكاف، سكدة، وليس

سقدة كما ذكر البكري وهو فرق في النطق فقط[23] (البغدادي، 1992، ص722).

7-القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي

1.7 -التمكرتي (941هـ/ 1534):

ذكر مدينة القل وأشاد بمينائها الجيد قائلا: " ثم دخلنا مرسى القل وهو مرسى مليح، مستكن من الريح، فيه سوق وديار وجامع أقمنا فيه يومين وصلينا فيه الجمعة ثم سافرنا منه إلى بونة"[24] ويمكن استنتاج من نص التمكرتي رغم اختصاره الشديد أن مدينة القل كانت تتوفر على العناصرالأساسية للمدينة الإسلامية بمفهوم ذلك الوقت، من مسجد جامع و سوق ومساكن عامة، وقد قدم لنا جون لويس ماري بواري(Jean-Louis-Marie Poiret) لاحقا معطيات دقيقة عن هذه الديار والتي بحسبه لا تزيد عن مائة و خمسين منزلا من طابق واحد، بنيت بشكل سيئ من أغصان الشجر و الطين، و هي تكون أربعة أحياء كبيرة هي: بر الطويل، بر قايد، لازولين و الجردة[25].

7. 1-الوزان الفاسي (ت947هـ/1550م):

قال عن مدينة سكيكدة ما يلي: "مدينة أزلية بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدة عن قسنطينة بنحو خمسة وثلاثين ميلا خربها القوط (الوندال) في الزمن الغابر" و ما يلاحظ في كلام الوزان هو هذا الترتيب الكرنولوجي للمراحل التاريخية القديمة للمدينة، ولو أنه قد أهمل الحديث عن كونها من انشاء الفنيقيين، وإلا لكان ترتيبه دقيقا جدا، ثم يتم الوزان حديثه بعد ذلك "إلا أن أمير قسنطينة، نظرا لمينائها الجيد، أمر ببناء منازل ومخازن للجنويين الذين كانوا يتجرون في البلاد، بل أنشأ أيضا قرية في أعلى جبل مجاور يقيم بها حارس على الدوام للإخبار بالسفن المتجهة إلى الميناء، يتجر سكان جبل سكيكدة كثيرا مع الجنويين، فيدفعون لهم القمح مقابل أقمشة وغيرها من منتوجات أوروبا" [26]

وأضاف الوزان الفاسي عن مدينة سكيكدة قوله: "ويمتد بين هذا الميناء وقسنطينة طريق مبلط بحجارة سوداء على نحو ما يشاهد في ايطاليا من بعض الطرق المسماة بالطرق الرومانية، وهذا ما يدل دون شك على أن سكيكدة من بناء الرومان"[27] ويتضح من خلال نص الوزان أنه أكثر النصوص دقة من حيث وصف المنطقة، فقد أدرك أن ميناء سطورة ما هو إلا امتداد طبيعي لمدينة روسيكاد الرومانية، و أن هذه الأخيرة كانت و لا تزال المنفذ البحري الرئيسي لقسنطينة، كما يبدو أيضا من خلال وصفه للطريق أنه حظي بفرصة معاينة المنطقة عن كثب، إذ عثر

خلال الحقبة الاستعمارية فعلا على حجارة بلون أزرق داكن تم تبليط الطريق الروماني بها عند مخارج المدينة.

كما أورد الوزان في هذا النص تفصيلا مهما يتعلق ببناء أمير قسنطينة لمركز للمبادلات التجارية بين الجنويين وأبناء المنطقة وذلك تحت اشراف حامية عثمانية قريبة من الميناء، وقد احتفظت الذاكرة المحلية للمنطقة بالتسمية التي كانت هذه الحامية متمركزة فيها وهي " الطبانة " بأحد الجبال المحيطة بواد القردة (rivière des singes) أو "بوالقرود" حاليا، وفي الواقع ومثلما أشارت اليه الوثائق الفرنسية فإن تلك المخازن معظمها يعود للعهد الروماني، حيث استخدمها الملاحون كملاجئ خلال معظم فترات التاريخ الوسيط للمنطقة.

وعن مدينة القل ذكر الوزان الفاسي ما يلي: "القل مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط عند قدم جبل شاهق، وليست مسورة لأن القوط (الوندال) هدموا أسوارها، ثم أن المسلمين لما حكموها تركوها على حالها، وهي مع ذلك مدينة متحضرة مليئة بالصناع، وأهلها ظرفاء كرماء، تجارتهم رابحة"(الوزان، نفسه، ص 54-55).

ويضيف: "لأنهم يجنون من جبالهم الكثير من الشمع، ويمتلكون كمية عظيمة من الجلود يبادلون بها البضائع التي يحملها أهل جنوة إلى مينائهم" ثم يواصل بعد ذلك حديثه عن الوضع الزراعي المزدهر في أراضي القل المحصنة ضد السلطات العثمانية شرقا وغربا، حيث انهم يفضلون العيش أحرارا في أراضيهم، إلا أن ذلك لم يمنع في الواقع من

وجود حامية عثمانية بمدينة القل كانت تشرف على سير الأمور بالمنطقة من خلال تنصيب بعض الأعيان من السكان الذين يتولون مهمة ذلك، و نظرا للمهارة الفائقة لسكان القل في الممارسة التجارية عن طريق بيع ما يحصلون عليه من السلع الجنوية بالتجزئة في داخل الأراضي فإن ذلك قد أكسبهم أضعافا مضاعفة من المال و جعلهم يحققون أرباحا طائلة، حتى أن الوزان يصف ذلك بقوله "وليس على ساحل مملكة تونس مدينة أغنى من القل، لأنها بدأت تحقق في تجارتها مع الجنويين أضعاف أضعاف ما تعطيه إياهم " و لا نفهم هنا السبب الذي جعل الوزان يلحق مدينة القل بإقليم مملكة تونس، على الرغم من أنها كانت في ذلك الوقت تتبع لأمير قسنطينة (بايلك الشرق) و لا أدل على ذلك من أن أحد حكام قسنطينة هو نفسه سي أحمد باي القلي الذي كان يتولى – قبل ترقيته إلى باي – مهمة الإشراف على الحامية العثمانية بمدينة القل، حتى أنه بنى بها مسجدا لا يزال شامخا إلى اليوم و هو مسجد سيدي علي الكبير.

7. 2- كربخال مارمول (ت979هـ/1571م):

ذكر مدينة سكيكدة بقوله: "مدينة عتيقة بناها الرومان فوق جبل عال يمتد طرفه إلى البحر عند خليج نوميديا، تقع شمال قسنطينة على

بعد اثنى عشر ميلا منها؟، جعلها بطليموس... واسمها عنده طاكاسي، كان القوط قد دمروها"[28] وفي الحقيقة لم نجد فيما بين أيدينا من الوثائق أن بطليميوس قد اطلق على المنطقة اسم طاكاسي، بل إنما اطلق عليها اسم روسيكادا أو أنه أعاد في بعض النسخ التسمية التي اطلقها من قبله مواطنه سكيلاكس و هي طابسا أو طابسوس نسبة لوادي الصفصاف الذي يعد منذ القدم أحد أكبر الأودية القريبة من المدينة، وهو ما يؤكده فبيوس سيكواستر Vibius Sequestre في القرن الرابع للميلاد بقوله "طابسوس الافريقي، بالقرب من روسيكاد" Thapsus africae) (iuxta rusicadem[29] ، كما لاحظنا أن نص كربخال يحمل معلومات مشوهة، إذ انه لا يفرق بين سطورة كميناء و مدينة روسيكاد العتيقة أو سكيكدة مثلما يسميها، جاعلا من كلايهما مدينتين مختلفتين بنفس الوصف تقريبا، و هو ما يدفع للاعتقاد أنه لم يزد إلا عن نقل كلام الوزان بحرفه مع إضافة بعض المعلومات البسيطة، حتى أنه يقول بأن المدينة بنيت فوق جبل يمتد طرفه إلى البحر، و هو ما يخالف الحقيقة الجغرافية التي تجعل المدينة تقع بين جبلين و ليس فوقهما، وهو ما يؤكد أن كربخال انما اعتمد فقط على جمع معلوماته من مختلف المصادر دون تمحيص، و لا أدل على ذلك من هذا النقل الحرفي لنص الوزان في قوله: "ولكن وجود مرسى جيد بها جعل عامل قسنطنة يبني على ساحل البحر عددا من المخازن والملاجيء للتجار الأوروبيين الذين يقصدون هذه المدينة للتجارة، كما أمر ببناء حصن بأعلى جبل

مجاور، به حراسة دائمة، ويقايض سكانه مع الأوروبيين في عدد من البضائع مقابل ما عندهم من حنطة وأغطية ومنسوجات، وتربط هذه المدينة بقسنطينة طريق الالتواء فيها، مبلطة بحجارة كبيرة سوداء مماثلة لتلك الطرق التي عبدها الرومان في كل من ايطاليا واسبانيا إلا أن المياه قد أفسدت أماكن من هذه الطريق".

أما عن القل فذكرها بقوله: "مدينة عتيقة يقال أنها من بناء الرومان، جعلها بطليموس عند سبع وعشرين درجة طولا و إحدى وثلاثين درجة عرضا ... ويسميها مدينة القل العظمى، وموقعها عند قدم جبل يمتد على ساحل البحر في خليج نوميديا" أما بقية الوصف فهو نفسه الوصف الذي نجده عند محمد حسن الوزان و الذي قمنا بالتفصيل فيه، و لعلى التفصيل المهم عنده هو قوله: "لذلك لم تكن مدينة أغنى من مدينتهم هذه، إذ كانت تستطيع تجنيد عشرة آلاف من المقاتلين، وقد استسلمت فيها بعد ذلك للأتراك، ولهم فيها حامية دائمة، ويقوم الحاكم في الجزائر بتعيين وال عليها يكون تابعا لحاكم قسنطينة، وهو الذي يتولى استخلاص جباية الإقليم بكامله، وله حرض على الرفق بالسكان وإبعاد العسف عنهم".

خاتمة:

إن منطقة سكيكدة بمكوناتها الثلاث سكيكدة، ستورة والقل حظيت بوصف الرحالة والجغرافيين العرب منذ القرن الثالث الهجري الموافق

للقرن العاشر الميلادي، وقد يبدو توقيت ظهور اسم المنطقة في الكتابات العربية والإسلامية متأخرا نوعا ما، وهذا انما راجع لكونها منطقة ساحلية، ونحن نعلم أن حملات الفتح الإسلامي للمغرب قد انطلقت أولا من داخل الأراضي ثم بدأت في التوسع شيئا فشيئا لتمتد عبر كامل شمال افريقيا وحتى ضفاف أوروبا الجنوبية.

كما لاحظنا من خلال الكتابات التي وصلت الينا والتي استعرضنا نصوصها وفق ترتيب كرونولوجي متسلسل أن وصف المنطقة كان يطرد زيادة واستفاضة تبعا للتطور التاريخي لهذه الأخيرة، فبعدما كان لا يزيد في بداية الأمر على أكثر من ذكر اسم المدينتين (القل– سيقدة)، فإن الكتابات المتأخرة قدمت لنا صورا متعددة لأوجه النشاط الاقتصادي والسياسي للمنطقة، ما يدل على أنها بدأت تعرف ديناميكية تاريخية بالموازاة مع انتشار المد الإسلامي وترسخه في عموم شمال افريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط.

ورغم ذلك فإننا نشير إلى أن هذه الكتابات تعد في الحقيقة قليلة جدا بالنظر إلى صيت المنطقة قديما، حتى أن المعلومات المقدمة بشأنها تبعث على التساؤل حول سر هذا الصمت الذي خيم عليها في فترة من الفترات التي كان يعرف فيها المغرب الإسلامي عموما زخما من الأحداث والتحولات الكبرى، حتى أن هذه الكتابات كلها تركز أكثر على الميناء أو المرسى وحواليه وقلما تتوغل إلى داخل الأراضي لتقدم لنا وصفا مستفيضا عن بنية المجتمع وثقافته هناك.

ولوانها من جهة أخرى أفادتنا في التعرف على التسميات المختلفة التي أطلقت على مدن المنطقة وموانئها، فإذا كان اسم مدينة القل قد تحور من الاسم القديم شولو مرة واحدة دون تغيير الى يومنا هذا، فإن مدينة سكيكدة قد تحور اسمها على مراحل، من روسيكاد إلى سيقدة ثم سيكدة وأخيرا راس سكيكدة أو سكيكدة فقط، وهو ما يحيل الى مدى الارتباط الوثيق للذاكرة المحلية بجذور ماضيها الموغلة في القدم.

وقد احتوت النصوص المتأخرة بالمقارنة مع مثيلاتها السابقة بعض المعطيات عن طبيعة سكان المنطقة الذين هم مزيج من القبائل المحلية والعربية ذووا النزعة المستقلة، بحيث آثروا حياة العزلة بين اكناف الجبال على الخضوع لسلطة الإدارات المتعاقبة، كما مارسوا نشاطا تجاريا مربحا وأولوا عناية كبرى لزراعة مختلف الأشجار المثمرة.

أخيرا، نشير إلى أن البحث في التاريخ الوسيط للمنطقة لا يزال في بداياته، وأنه بالإمكان من خلال المصادر العديدة لتلك الفترة أن ندحض بعض ادعاءات المدرسة الكولونيالية التي تقلل من التأثير الحضاري للإسلام بالمنطقة.

الهوامش:

[1] Gsell Stéphane, Atlas archéologique de l'Algérie, Otto Zeller Verlag. Osnabruck,1973. Feuille N°8 p 12.

[2] كلازديوس بطليموس، وصف ليبيا ومصر، ترجمة محمد المبروك اليعقوبي، منشورات قان يونس، بنغازي، 2002 .ص 40.

[3] Solin Caius Julio, Histoire, traduit par M A Angant, C.L.F panckoucke 1847, chapitre XXVII.

[4] Tauxier Henri Itinéraire de Rusicade à Hippone in .Bull de L'acad d'Hippone n°08 (1869) page 34- 39

[5] Bertrand Louis, histoire de Philippeville et ses environs, Philippeville 1903. P 2.

[6] Vars Charles, Cirta, ses monuments son administration ses magistrats d'après les fouilles et les inscriptions. Imprimerie nationale 1895. p 8-11.

[7] اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، بيروت لبنان، منشورات دار الكتب العلمية، 2002. ص 190.

[8] عيساوي مها، النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم، دراسة تاريخية لغوية حول الواقع الثقافي قبيل الاحتلال الروماني، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع ،2009. ص 63-64.

[9] ابن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن هولندا، مطبعة بريل 1892. ص 32.

[10] البكري، المسالك والممالك، ج2، تح، تق، أدريان فان ليوفن، أندري فيري، تونس، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والترجمة والدراسات بيت الحكمة 1992. ص 729

[11] ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، مجلد 3، بيروت لبنان، دار صادر1882. ص 218.

[12] نفسه، ص 491.

13 الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1983. ص 170-179.

14 قويسم محمد: مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط، مجلة كان التاريخية، عدد13، السنة الرابعة، سبتمبر ايلول 2011 شوال1432هـ. ص 57-70.

[15] مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، بغداد العراق، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، (د ت). ص 77.

[16] ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، بيروت لبنان، دار صادر، (د ت). ص 230.

[17] ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1982. ص 142.

[18] أبو الفدا عماد الدين، تقويم البلدان، دار صادر بيروت (دت). ص 137.

[19] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج5، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، 1915. ص 109.

[20] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان 1984. ص 80.

[21] – بونابي الطاهر: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/12-13 الميلاديين، أطروحة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف الدكتور عبد العزيز فيلالي، كلية العلوم الإنسانية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1419-1420هـ/1999-2000م. ص 1-6

[22] العربي إسماعيل، المدن المغربية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984. ص 139.

[23] صفي الدين عبد المؤمن البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مج 2، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، بيروت، لبنان، دار الجيل 1992. ص 722.

[24] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان 1984. ص 38.

[25] Jean-Louis-Marie Poiret, voyage en barbarie, ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785-1786, J.B.F Paris. P 120.

26 الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج1-2، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي 1983. ص 54.

[27] نفسه، ص 54.

[28] كربخال مرمول، إفريقيا، ج3، ترجمة، محمد حجي، محمد زنير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الرباط، المغرب، دار نشر المعرفة للطباعة والتوزيع، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1984. ص 7.

[29] Gsell (St). Op.cit. feuille n 08 page 12.